



قبل 40 سنة في السادس من تشرين الأول، في الساعة الثانية بعد الظهر بتوقيت القاهرة عبر الجيش المصري قناة السويس واخترق خط بارليف الإسرائيلي في الضفة الشرقية لقناة وسيطر عليها. في الوقت عينه اقتحم الجيش السوري الدفوعات الإسرائيلية في هضبة الجولان المحتلة وحقق تقدما سريعا.

الإنجازات المصرية وال السورية في الأيام الأولى للقتال لها أكثر من سبب، أبرزها عنصر المفاجأة، ولكن أيضا التحسن النوعي الذي طرأ على تدريب الجيشين المصري والسوقي، و معنوياتهما العالية وأدائهما الجيد الذي اتسم بالشجاعة والتنسيق، وهو أمر اعترف به الضباط الإسرائيليون. الأسبوع الأول من الحرب كان أفضل وأنفع سجل للجيشين.

في الأيام الأولى للحرب وصل التضامن العربي بمختلف صوره إلى أعلى مستوياته مع مصر وسوريا. وأرسل العراق والمغرب وال سعودية والأردن ولibia الجنود والأسلحة إلى الجبهتين، وعندما بدأت الولايات المتحدة بإقامة جسر جوي مع إسرائيل لتزويدها بالأسلحة، بعد خسارتها الفادحة لعشرات الطائرات ومئات الدبابات، إتخذ العاهل السعودي آنذاك الملك فيصل بن عبد العزيز قرارا تاريخيا حين فرض مع دول عربية أخرى حظرا على تصدير النفط إلى الولايات المتحدة.

كم يبدو اليوم المشهد العربي مختلفا ونقضا بالمطلق، لما كان عليه الوضع في تشرين 1973 على مستوى الدول، وعلى مستوى المنطقة ككل.

الجيش المصري اليوم يقوم بعمليات عسكرية في سيناء، ولكن ليس ضد إسرائيل بل ضد تمدد محلي لقوى جهادية مصرية تدعيمها عناصر إسلامية متطرفة من الخارج.

وفي الوقت عينه يقوم الجيش المصري بعمليات "عقابية" ضد الفلسطينيين في غزة من خلال إغلاق و تدمير الإنفاق بين سيناء وقطاع غزة.

وفي الداخل، لا يزال الجيش المصري بعد ثلاثة أشهر من إطاحة الرئيس الإخوانى محمد مرسي يواجه المتظاهرين الإسلاميين في شوارع القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن، حيث يستخدم أحيانا الذخيرة الحية ضدهم.

المشهد السوري أكثر مأساوية وفظاعة. الجيش السوري يواصل أطول وأشرس حرب في تاريخه بدأت قبل أكثر من سنتين وليس من المرجح أن تنتهي في أي وقت قريبا.

ولكن العدو الآن ليس مرابطا في الجولان، بل في المدن السورية وأريافها.

هذه الحرب استخدم فيه الجيش جميع أنواع الأسلحة المتوفرة لديه لقمع انتفاضة شعبية كانت في أشهرها الأولى سلمية، وسرعان ما ساهم النظام في عسكرتها، وبعدها تطورت بشكل مقلق للغاية مع بروز عناصر جهادية متطرفة الكثير منها جاء من الخارج.

الدمار المادي الهائل الذي لحق بمدن سوريا التاريخية مثل حلب وحمص وحماء ، هو ذلك الدمار الذي ينجم عن استخدام الطائرات والصواريخ والمدفعية الثقيلة.

حتى السلاح الكيميائي، الذي كان يفترض أن يردع إسرائيل، استخدمه النظام ضد السوريين.

نزوح مليون لاجئ سوري إلى لبنان، وعدد مماثل تقريبا إلى الأردن، وعبر الحرب السورية بمستويات مختلفة إلى لبنان والعراق وتركيا يمكن أن يفجر المنطقة بكماتها.

معظم الدول العربية في المشرق تعيش في ظل جيرانها غير العرب: إسرائيل، إيران وتركيا.

بعد 40 سنة من حرب تشرين الثاني، تغير الكثير، ويقي الكثير.

اللاعبون الرئيسيون رحلوا جميعهم، باستثناء هنري كيسنجر. انهار الاتحاد السوفيتي وخلفته روسيا الاتحادية. توفي حافظ الأسد وخليفه بشار الأسد. اقتراب واشنطن وموسكو خلال الحرب من المواجهة العسكرية، وأزمة النفط، ودور كيسنجر في إقناع إسرائيل بالسماح بالمؤمن بالوصول إلى الجيش المصري الثالث المحاصر وبعدها بالتوصل إلى اتفاق لوقف النار واتفاقات فك الارتباط، أقنعت واشنطن بضرورة لعب دور أكبر وأهم في "عملية السلام"، خصوصاً وأن الرئيس السادات كان يهدف من الحرب إلى إرغام واشنطن على لعب مثل هذا الدور، خصوصاً بعدما أخفق قراره بطرد الخبراء السوفيات في 1972 بإقناع واشنطن بالضغط على إسرائيل للدخول في مفاوضات سرية.

الوثائق التي كشفتها وزارة الخارجية الأمريكية تشير إلى أن كيسنجر رأى أن الحرب وضعت أميركا "في موقع مركزي" وألحقت "هزيمة" بموسكو.

الوثائق تبين أيضا أنه قبل الحرب كان كيسنجر يقول للمصريين "لا تتوقعوا أن تربحوا وأنتم أمام طاولة المفاوضات ما خسرونه فوق أرض المعركة" وفقا للديبلوماسي المصري أحمد ماهر السيد.

وأبرزت حرب تشرين خطورة التنافس الأميركي-ال Soviatic ورغبة كل طرف بالحفاظ على نفوذه ومصالحه، الأمر الذي دفع بالرئيس نيكسون للقول قبل توقف القتال "لا أحد يدرك أكثر مني ما هي المصالح الموجودة على المحك: النفط ومواعينا الاستراتيجي".

حرب تشرين، كانت بمثابة تذكرة سفر للرئيس السادات للهروب من الصراع العربي-الإسرائيلي والتوصل إلى سلام منفرد مع إسرائيل.

الحرب كانت البداية الحقيقة لتطبيع العلاقات المصرية-الأميركية، وإلى تحول مصر إلى إحدى دعائم الاستراتيجية الأميركية في المنطقة، إضافة إلى إسرائيل وال سعودية وتركيا. تعثرت الحرب في بدايتها لأكثر من سبب عسكري ولوجيسي، ولكن كانت لذلك أسباب أخرى منها أن أنور السادات وحافظ الأسد دخلا الحرب بمنظورين مختلفين:

السادات خطط لحرب قصيرة الأجل ضد إسرائيل لإرغام واشنطن على التوسط وبدء المفاوضات مع إسرائيل لاستعادة سيناء المحتلة بعد إعادة الاعتبار إلى الجيش المصري.

من جهةٍ كان الأسد يأمل بحرب أطول (تحمّل فيها مصر العبء الأكبر) لإرغام إسرائيل على الانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة.

الدبلوماسية الأميركيّة التي بدأها كيسنجر باتفاقات فك الارتباط على الجبهتين، أدت لاحقاً إلى اتفاقات كمب دافيد ومعاهدة السلام المصريّة- الإسرائيليّة التي أعادت بقية سيناء إلى مصر.

في تسعينات القرن الماضي وقعت إسرائيل معاہدة سلام مع الأردن، واتفاقيات أوسلو مع منظمة التحرير، لكن الضفة الغربية لم تحرر حتى الآن، ولا يزال الجولان تحت الاحتلال الإسرائيلي.

حرب تشرين، أحدثت شروخاً عميقاً وتحولات في العلاقات العربيّة- العربيّة، وأدت إلى أزمة وقطيعة طويلة بين دمشق والقاهرة، ولكن أبرز هذه التحولات، كان انتقال مركز الثقل والنفوذ من شرق المتوسط إلى منطقة الخليج.

أمريكا، تقاطعت حرب تشرين مع فضيحة ووترغيت، التي أضعفـت مركز مكانة دور الرئيس نيكسون، ورفعت من أهمية ونفوذ دور هنري كيسنجر، قبل تحول نيكوسن إلى أول رئيس في تاريخ أميركا يستقيل من منصبه. المشهد النفطي تغيّر جذرياً بين 1973 واليوم.

في السنوات الأخيرة بدأت الولايات المتحدة بتقليل حجم مستورداتها من النفط العربي، والاعتماد على مصادر أخرى، والأهم من ذلك زيادة إنتاجها المحلي من خلال تطوير وسائل تقنية جديدة لاستخراج النفط والغاز.

يوم الأربعاء الماضي لخص العنوان الرئيسي لصحيفة "الولايات المتحدة تستبدل روسيا بأكبر منتج للنفط والغاز".

مرت الذكرى الـ40 لحرب تشرين، دون أي اهتمام تقريباً في الأوساط السياسيّة والأكاديمية والإعلامية الأميركيّة. الزميل ديفيد أغناطيوس نشر مقالاً في صحيفة "الواشنطن بوست" حول كتاب الإسرائيلي بعنوان "1973: الطريق إلى الحرب" مؤلفه ييغال كيبينيس يقول إن حرب تشرين كان يمكن تفاديها لو لم تتسم القيادة الإسرائيليـة آنذاك "بالغطرسة، والثقة المفرطة والعمى السياسي" لأنها لم تتجاوب مع الاتصالات السرية التي بدأها كيسنجر مع المصريـين في 1972 الذين أبلغوه برغبـتهم في التوصل إلى اتفاق سياسي لاستعادة سيناء.

ونشرت "النيويورك تايمز" مقالاً للخبير الإسرائيلي في الشؤون النوويـة أفنـر كوهين مبني على حوارـات مع مسؤولـين إسرائيلـيين سابقـين يـفـندـونـ فيـهـ النـظـرـيـةـ التيـ تـقولـ إنـ إـسـرـائـيلـ اـقتـرـبـتـ مـنـ اللـجوـءـ إـلـىـ الـخـيـارـ الـنوـوـيـ فـيـ 1973ـ.ـ ويـشـيرـ إـلـىـ لـقاءـ طـرـحـ فـيـهـ وزـيرـ الدـفـاعـ آنـذاـكـ موـشـيـ دـايـانـ الـخـيـارـ الـنوـوـيـ،ـ إـلـاـ أنـ رـئـيـسـةـ الـوزـراءـ غـولـداـ مـائـيرـ قـالـتـ لـهـ بـوـضـوـعـ وـحـزـمـ إـنـسـىـ الـمـوـضـوـعـ".ـ

النهار

المصادر: